

فلاسفةٌ منسيون

الشيخ عبد الكريم الزنجاني

(1304 - 1388هـ)

الشيخ مازن المطوري

الكلمات المفتاحية: عبد الكريم الزنجاني، سيرة الآخر، المنهج الفلسفي، ألبرت اينشتاين، نظرية النسبية، الفلسفة الحديثة، الدين.

عُرف عن الأمم شدة تعلقها برجالها وأفذاذها، وقد تبالغ أحياناً في تكريمهم إلى درجة تفوق المستوى الطبيعي للتكريم والمستوى الواقعي لهم! وهذا مؤشر على وجود جو متاح من الحرية.

وهناك في الأمم من تحارب رجالها الأفذاذ، وتتنكر لهم لأسباب شتى، منها سياسية ومنها فكرية، وهو أمر راجع إلى غضب الحكومات من المبدع نتيجة لآرائه وطموحاته. وكذلك إلى السلوكية الاجتماعية الناشئة من المنافسة بين المبرزين في الاتجاهات العلمية، والتي لا تخلو من مشاكسات غير أخلاقية يتخللها الكره والحسد، وأهل الصناعة الواحدة أكثر الناس عرضةً للحسد.

والواقع إن التكريم المبالغ فيه على الرغم من سلبياته الكثيرة، إلا أنه من دون شك، أفضل بكثير من سحق المبدعين وتناسيهم والتنكر لهم، إلى درجة تبعث على الشفقة عليهم، حيث يحاصر المبدعون في صومعاتهم لحين وفاتهم.

في هذه السطور نريد التوقف عند شخصية مجهولة بين العامة، معروفة عند الخاصة، أعني الراحل الشيخ عبد الكريم الزنجاني رحمه الله، محاولين التوفر على سيرته الذاتية، ومنهجه الفلسفي والكلامي، ومسيرته الإصلاحية، لعلنا في ذلك نؤدي شيئاً من حق التكريم.

محطات السيرة

الشيخ عبد الكريم بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد حسن بن الشيخ محمد علي الزنجاني (1304-1388 هـ - 1887-1968 م) فقيه فيلسوف من فقهاء وفلاسفة الإمامية في القرن الرابع عشر الهجري. تولد بمحافظة زنجان الإيرانية في مدينة باروت أغاجي، التي أنجبت العلماء على طول تاريخها العريق بتاريخ 8 رمضان 1304 هـ (1887/5/31 م)¹.

ينحدر الزنجاني من أسرة عريقة علمية عربية الأصل، كان موطن سكانها النجف الأشرف منذ أقدم العصور بمحلة (العمارة) قبل هجرتها إلى إيران في سنة 1217 هـ (1803 م)، إثر تعرض المدن المقدسة في العراق لغزوات الوهابيين، حيث عاشوا في الأرض فساداً².

نشأ الشيخ عبد الكريم في كنف أبيه الشيخ محمد رضا الزنجاني، الذي اهتم بتعليمه وتثقيفه وخصص له الأساتذة لتدريسه الفنون والعلوم. فدخل المدارس العلمية وفاق أقرانه، وصرف كثيراً من استعداداته لتمارين مواهبه³.

توفر الزنجاني على دراسة مقدمات العلوم عند والده. وبعد ذلك انتقل لدراسة الفلسفة والرياضيات والفقهاء والأصول وغيرها من العلوم، التي كانت تتوفر عليها الحوزات العلمية وقتئذ، عند كل من:

1- الملا قربان علي الزنجاني (ت 1328 هـ).

2- الميرزا مجيد بن عبد العلي الحكمي (ت 1906 م).

3- الميرزا إبراهيم مسگر الزنجاني (ت 1356 هـ).

4- السيد حسين بن القناد (ت 1912 م)⁴.

(1) طبقات الفقهاء 14 ق 1: 366؛ فهرست مشاهير علماء زنجان: 74.

(2) كلشن أبرار 6: 222؛ معجم مؤرخي الشيعة 1: 505؛ تاريخ زنجان: 374؛ مجلة العرفان 28/8: 772.

(3) محمد هادي الدفتر، صفحة من رحلة الإمام الزنجاني، الجزء 1، الصفحة 209.

(4) شرح زندكابي دانشمندان وروايات أستان زنجان: 216؛ كلشن أبرار: 223؛ آثر أفرينان 3: 182.

نازعته نفسه نحو الفلسفة فقرر التوفر عليها بعمق، لذا يجم وجه تلقاء طهران حيث الفلسفة مزدهرة فيها وقتئذ، فألقى رحله في الحوزة الفلسفية للأعلام:

1- الملا علي النوري (ت 1921م).

2- الميرزا إبراهيم أبو الفتح الرياضي (ت 1351هـ)⁵.

ولم يغفل الزنجاني في طهران عن متابعة القضايا السياسية الجارية على الأمة الإسلامية، والحوادث الواقعة حولها، المنشورة في الصحف والمجلات الصادرة آنذاك⁶.

في سنة 1326هـ (1909م) وبعد إكماله التحصيلات الفلسفية في معاهد طهران، قرر الرجوع إلى مسقط رأسه لأجل إكمال تحصيلاته هناك. وبعد كل هذا التنقل بين حلقات الدرس من حلقة لأخرى ومن عالم لآخر، ومتابعة دروسه وعلومه مدة تجاوزت تسع سنوات، تمحضت في نهاية المطاف عن نيله إجازة الاجتهاد من الملا قربان علي الزنجاني، وكانت أول إجازة اجتهاد يحصل عليها⁷.

بعد رجوعه من طهران، وبسبب عدم إشباع حوزات إيران وحلقات الدرس فيها حبه وشغفه للعلم والمعرفة، ترك الزنجاني مدينة زنجان مهاجرًا إلى النجف الأشرف لأجل إكمال دراسته في حوزتها، ولم يكن يبلغ من العمر حينذاك الثاني والعشرين ربيعًا، فلازم مجالس دروس الأعلام:

1- الشيخ محمد كاظم الخراساني (ت 1329هـ).

2- السيد محمد كاظم اليزدي (ت 1337هـ).

3- الشيخ فتح الله شيخ الشريعة الإصفهاني (ت 1339هـ).

(5) طبقات الفقهاء 14 ق 1: 364 ؛ خط سوم در انقلاب مشروطيت إيران: 234 ؛ تاريخ حكماء وعرفاء: 457.

(6) الشيخ عبد الكريم الزنجاني.. نجم في سماء التقريب والوحدة (مقال).

(7) كلشن أبرار 6: 223 ؛ أثر أفرينان 3: 182 ؛ شرح زندكابي دانشمندان: 216، 224.

4- السيد محمد الفيروزآبادي (ت 1345هـ)⁸.

وقد توج هذه التحصيلات بحصوله على إجازتين بالاجتهاد من السيدين اليزدي والفيروزآبادي⁹.

تضلع من فنون العلم العقلية منها والنقلية لا سيما الفلسفة على وجه عام، والفلسفة الإسلامية على وجه خاص، وقد ظهرت له فيها آراء ونظرات جديدة¹⁰.

تفرغ الزنجاني للتدريس والعطاء، فشرع بتدريس الفلسفة والكلام والفقه والأصول، واتصل به كثيرٌ من أهل المواهب والذكاء، فكان يعلمهم من علومه على منهاج صالح.. وأمد أذهانهم إلى كثير مما يحيط بهم، ففجر عقولهم، وجرأ قلوبهم، ودرب ألسنتهم على المنطق والمبالغة بفنون الجدل والبرهان، وعودهم الجهر بالرأي دون خوف من أحد، وفي ثنايا هذه كان يبعث في نفوسهم دعوة إصلاحية جريئة، فأثار لدعاة الإصلاح طريق الدعوة، وعلمهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها¹¹.

ولعل كون العَلَمين السيد الخوئي والشيخ مجتبي اللكراني من تلامذته، يعطي تصورًا واضحًا عما كانت تحويه حلقات درسه من عطاء ثر ورجال وعقول¹².

أضحى الزنجاني أحد رجالات المرجعية الشيعية بدايات العقد الثالث من القرن العشرين¹³. وتميزت مرجعيته بالوعي والإصلاح، وملاً كيانها الهم الديني، كان ناظرًا بعين البصيرة لما تمر به الأمة الإسلامية من تحديات ومخاطر ومؤامرات تحاك لها، فكان الزنجاني حاضرًا في سُوح الجهاد، وحاضرًا في الأزمت الفكرية التي تعصف بعقيدة الأمة،

(8) طبقات الفقهاء 14 ق 1: 364؛ تاريخ زنجان: 375؛ فهرست مشاهير وعلماء زنجان: 74؛ موسوعة أعلام العراق في القرن

العشرين 3: 157؛ كلشن أبرار 6: 223؛ معجم رجال الفكر والأدب 2: 642.

(9) صفحة من رحلة الإمام الزنجاني 1: 211-212، حيث تجد صورة للإجازاتين.

(10) معجم طبقات المتكلمين 5: 313.

(11) كلشن أبرار 6: 224؛ عصور الأدب العربي: 160؛ صفحة من رحلة الإمام الزنجاني 1: 209.

(12) الشيخ عبد الكريم الزنجاني.. دراسة تاريخية 70؛ فهرس التراث 2: 479.

(13) طبقات الفقهاء 14 ق 1: 367.

وحاضرًا مسافرًا لأجل الدعوة للوحدة والإصلاح. فلم يقتصر نشاطه على التعليم والتأليف، بل سافر إلى الأقطار العربية والعواصم الإسلامية، في سبيل الوحدة والتقريب ولم شمل المسلمين.

وبعد حياة حافلة بالعلم والعمل، عاش الشيخ عبد الكريم في شبه عزلة سني حياته الأخيرة، وهي حياة اكتنفها الفاقة والحرمان وشظف العيش، وقد انعكس ذلك على وضعه الصحي والنفسي، فتداعت صحته وتدهورت كثيرًا، فبات لا يقوى على شيء¹⁴.

وبتاريخ الثلاثاء 17 جمادى الثاني 1388هـ (10/9/1968م) توقف قلمه عن العطاء، والتحق بالرفيق الأعلى إثر مرض سوء التغذية¹⁵، لتطوى بذلك صفحة ناهزت 84 عامًا تمثل القرن العشرين فكرًا وسياسةً وتربيةً، بعد تجارب نافعة من خلال رحلة فردية متميزة. نعم وافته المنية زاهدًا في الحياة في مدينة النجف، تحت وطأة الصراع مع الزمن ومرارة النكران.

وبوفاته انغلقت مدرسة ضخمة من المدارس العلمية في العالم الإسلامي، وغادر دنياه وهو لم يخلف مالا ولا بنون غير كتبه وأعماله، وصعدت روحه إلى بارئها بقلب سليم، لتطوى بذلك صفحة حياته المعطاءة الزاخرة بفكره ومواقفه المبدئية المفعمة بروح السماحة والإنسانية من جهة، والدفاع عن مصالح الأمة ووحدها بإزاء الأخطار الخارجية من جهة أخرى. وهي رؤى ومواقف خللته بين حملة لواء الإصلاح والتجديد والذود عن مصالح ووحدة المسلمين¹⁶.

المؤلفات والآثار

الشيخ الزنجاني من العلماء القلائل الذين ألفوا في مختلف العلوم كتبًا ورسائل متعددة، فقد ترك ما يربو على سبعين

(14) الشيخ عبد الكريم الزنجاني.. دراسة تاريخية، محمد جواد الجزائري: 103.

(15) مشاهير المدفونين في الصحن العلوي الشريف، كاظم الفتلاوي: 185.

(16) الشيخ عبد الكريم الزنجاني.. دراسة تاريخية: 104 ؛ من فلاسفة الترك في العراق، محمد مهدي بيات (مقال)، صحيفة المثقف الإلكترونية، العدد (1128) بتاريخ الاثنين 2009/8/3 م.

مؤلفاً¹⁷.

وأسلوب الزنجاني في التأليف كان أمراً بين أمرين، بين الإطناب والإيجاز، بين طريقة الفلاسفة المعقدة، والأسلوب المحشو بالتكرار عند أهل الحديث، فقد اتبع خطأً وسطاً حتى لا يأسره خَلَل الإيجاز، ولا يصطدم بما يبعث على الملل في الإطناب. والذي يلفت النظر أنه يأتي بالفكرة في كلامه عدة مرات، ولكنه في كل مرة يأتي ببيان جديد محبب.

المطبوع من آثار الشيخ الزنجاني قليل، وله مخطوطات كثيرة ضاعت كما ضاع صاحبها في طي السنين العجاف، وهنا نكتفي بذكر قائمة لمؤلفاته المطبوعة:

1- ابن سينا خالد بآثاره وخصاله¹⁸، طبعته الأولى سنة 1371هـ (1952م) في مطبعة الغري الحديثة بمقدمة كتبها الناشر مرتضى الزنجاني، ونشره الشيخ حسن كاظم علّوش ثانية وطبع في مطبعة الغري في النجف سنة 1375هـ (1956م)¹⁹.

2- الإعداد الروحي للجهاد الإسلامي في فلسطين²⁰.

3- برهان الإمامة²¹، وهي محاضرة ألقاها الشيخ الزنجاني في لاهور وطبعت هناك برعاية حسن جعفري مولوي سنة (1945م)، ومعها ترجمتها بالأوردوية في قائمة مقابلة²². ونشرت حديثاً معربة في مجلة الموسم العدد 79/ 80 . والذي يؤسى له أنها نشرت من دون تحقيق، مضافاً لكثرة الأخطاء الطباعية.

(17) الفهرست لمشاهير وعلماء زنجان، الشيخ موسى الزنجاني: 74 ؛ طبقات الفقهاء 14 ق1: 368.

(18) فهرس التراث 2: 479 ؛ معجم رجال الفكر والأدب 2: 642 ؛ معجم المؤلفين 4: 22.

(19) فهرس التراث 2: 479.

(20) معجم مؤرخي الشيعة 1: 505؛ الأعلام 4: 56.

(21) فهرس التراث 2: 480 ؛ تاريخ زنجان: 377.

(22) الذريعة 25: 61، .

4- دروس الفلسفة، جزآن²³.

5- ذخيرة الصالحين²⁴ وهي رسالته العملية، طبعت ست طبعات²⁵.

6- شرح العروة الوثقى (الفقه الأرقى)²⁶، صدر الجزء الأول منه سنة 1335هـ وطبع طبعة ثانية سنة 1380هـ (1960م) في مطبعة الغري الحديثة في النجف الأشرف²⁷، وفي سنة 1388هـ (1968م) صدرت له طبعة ثالثة.

7- صفحة من رحلة الإمام الزنجاني وخطبه في الأقطار العربية والعواصم الإسلامية، جمع وترتيب محمد هادي الدفتر، جمع فيه حوادث وأخبار وخطب الشيخ الزنجاني في رحلته التي قام بها عام (1935م) إلى بعض البلدان. وكذا خطابات ولقاءات من سنوات أخرى.

8- الكندي خالد بفلسفته²⁸، نشره السيد محمد سعيد آل ثابت وطبع بمطبعة الغري الحديثة سنة 1382هـ (1962م)، مصدر بتمهيد كتبه الناشر. وقد قمنا بتحقيق هذه الرسالة ونشرها في العدد الثاني من مجلة البرهان الفصلية²⁹.

9- المثل العليا³⁰، وهو عبارة عن جمع لعدة مقالات كتبها الشيخ الزنجاني في عدة مناسبات عن موضوع المثل العليا، وقد ضمت المواضيع التالية: المثل الأعلى للعدل الاجتماعي في الإسلام، المثل الأعلى للدين، المثل الأعلى للإنسان، المثل الأعلى للأدب، المثل الأعلى للبيان.

(23) فهرس التراث 2: 479 ؛ معجم رجال الفكر والأدب في النجف 2: 642 ؛ الأعلام 4: 56 ؛ الذريعة 8: 146.

(24) فهرس التراث 2: 479 ؛ معجم رجال الفكر 2: 642 ؛ معجم المطبوعات النجفية: 185.

(25) معجم المطبوعات النجفية: 185.

(26) معجم رجال الفكر والأدب 2: 642 ؛ مع علماء النجف 2: 245 ؛ معجم المطبوعات النجفية: 266.

(27) معجم المطبوعات النجفية: 266.

(28) معجم رجال الفكر والأدب 2: 642 ؛ معجم المطبوعات النجفية: 287.

(29) نشرنا تحقيق الرسالة باسم مرتضى العراقي.

(30) معجم رجال الفكر والأدب 2: 642 ؛ معجم المطبوعات النجفية، محمد هادي الأميني: 299.

10- مناسك الحج.

12- الوحدة الإسلامية أو التقريب بين مذاهب المسلمين³¹. جمع وترتيب ونشر السيد محمد سعيد آل ثابت، طبع بمطبعة الغري الحديثة في النجف سنة 1381هـ (1961 م) طبعة أولى، وطبعة ثانية 1384هـ (1965م) في مطبعة المعارف ببغداد نشرها عبد الوهاب إسماعيل الحاج صفر.

13- الوحي والإلهام في بيان الإشراق الشيعي، وهي محاضرة ألقاها في لاهور وطبعت هناك برعاية حسن جعفري سنة 1354هـ³²، ونشرت حديثاً في مجلة الموسم الفصلية العدد 80 / 79 . والذي يؤسف له أنها لم تأخذ حقها من التحقيق العلمي، فضلاً عن كثرة الأخطاء الطباعية وسقط بعض الأسطر منها.

علاوة على مؤلفاته المطبوعة المار ذكرها، فإنّ هناك مؤلفات ذكرت ولا يعلم مصيرها، ذكرها السيد محمد سعيد هويدي في مقاله في ترجمة الشيخ الزنجاني التي نشرها في مجلة العرفان اللبنانية، كما أشار إلى أسماء بعض منها نفس الشيخ الزنجاني في بعض مؤلفاته المطبوعة.

مقالاته

الشيخ الزنجاني من الشخصيات العلمية القليلة التي أسهمت بالكتابة في الدوريات والصحف والمجلات التي كانت تصدر في النجف وخارجها. ومقالاته وإن كانت متنوعة حسب موضوعاتها، إلا أنها اشتركت بوحدة الهدف الذي سعى له وهو الإصلاح والنهوض بواقع المجتمع الإسلامي، وإعداد جيل مثقف مطلع على معالم دينه.

أما المجلات التي غطتها مقالاته فهي: (الغري)، (العدل)، (الحضارة)، (المثل العليا)، (البيان)، (جهره نما)، (العدل الإسلامي)، (العرفان)، وغيرها.

(31) فهرس التراث 2: 480 ؛ مع علماء النجف الأشرف 2: 245 ؛ معجم مؤرخي الشيعة 1: 505 ؛ معجم رجال الفكر والأدب 2: 642 ؛ الأعلام 4: 56 ؛ معجم المطبوعات النجفية: 378.

(32) الذريعة 25: 62 ؛ فهرس التراث 2: 480.

وهذه قائمة بأسماء مقالاته والمجلات التي نشرتها وتاريخ النشر حسبما عرضنا عليه:

- 1- الإسلام ومؤتمر السلم العام، مجلة الغري العدد (11) بتاريخ 24 / نيسان / 1945 م.
- 2- الإصلاح الديني، مجلة العدل العدد (1) بتاريخ 16 / نيسان / 1946 م.
- 3- إلى دعاة الإصلاح والوحدة، مجلة الحضارة بتاريخ 1 / كانون الثاني / 1938 م العدد (6).
- 4- ذكرى مولد الرسول، مجلة الغري العدد (30-31) بتاريخ 16 / نيسان / 1940 م.
- 5- عظيم الإسلام علي بن أبي طالب، مجلة الغري العدد (85) بتاريخ 6 / كانون الثاني / 1942 م.
- 6- فلسفة الخاتمية، مجلة الغري العدد (8) بتاريخ 6 / آذار / 1945 م.
- 7- القرآن الكريم وعلوم الحياة، مجلة الحضارة العدد (10) بتاريخ 28 / ذي الحجة / 1356 هـ (1/آذار/1938م).
- 8- المثل الأعلى للإنسان، مجلة العدل العدد (5) بتاريخ 1/آب/1965م.
- 9- المثل الأعلى للبيان، مجلة البيان العدد (الأول) بتاريخ 1 / شعبان / 1365 هـ (29 / حزيران / 1946 م).
- 10- المثل الأعلى للدين، مجلة العدل العدد (6-7) بتاريخ 15 / آب / 1965 م.
- 11- المثل الأعلى للعدل الاجتماعي في الإسلام، مجلة العدل العدد (8) 15 / أيلول / 1965 م.
- 12- المثل الأعلى للعدل والبيان، مجلة العدل العدد (9-10) 15 / تشرين الأول / 1965 م.
- 13- مربي البشر، مجلة الغري العدد (11) بتاريخ الثلاثاء 17 / ربيع الأول / 1365 هـ (19 / شباط / 1946 م).
- 14- المعجزة الخالدة، مجلة الغري العدد (6) بتاريخ الثلاثاء 15 / صفر / 1364 هـ (1/30 / 1945م).

15- النهضة الحسينية أسبابها نتائجها، مجلة الغري العدد (87) بتاريخ 17/ شباط / 1942 م.

16- نيروي نظامی را نماز تقويت ميکند (الصلاة والقوة النظامية)، مجلة جهره نما (فارسية) الصادرة في القاهرة،

العدد (2) بتاريخ اردى بهشت ماه 1319 هـ ش - 1940 م.

17- واجب الأمة وواجب العلماء، مجلة الحضارة العدد (8) بتاريخ 29 ذي القعدة 1356 هـ (1/ شباط /

1938 م).

18- وإذا حييتم بتحية، مجلة العرفان العدد (1) تشرين الثاني 1953 م.

19- والله الأمثال العليا، مجلة المثل العليا العدد (3) بتاريخ 15/ تشرين الثاني / 1941 م.

خطبه ومحاضراته

إن خطب ومحاضرات الشيخ الزنجاني وهو الخطيب المفوه بحسب شهادات معاصريه، أكثر من أن تحصى، ألقاها في العراق وإيران وسوريا ومصر وفلسطين ولبنان والهند والباكستان، وباللغتين العربية والفارسية، وفي المناسبات المختلفة، في الكثير من الجامعات والمناسبات.

والمطبوع المحفوظ؛ منها ما في كتاب (صفحة من رحلة الإمام الزنجاني وخطبه في الأقطار العربية والعواصم الإسلامية) من تأليف محمد هادي الدفتر، حيث جمع فيه بعض خطبه في الهند ومصر وفلسطين وسوريا ولبنان، طبع ثلاث طبعات ثالثها في بيروت (1996م) في مؤسسة النعمان للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة قشبية مخرجة منقحة من قبل حسن الشيخ ابراهيم الكتبي.

وكذلك طبع بعضها في كتاب بعنوان (محاضرات)، وبالفارسية طبع له منها بعض محاضراته بالهند وهي: (فلسفه

ضرورة دين)، و(سر طبيعي تجدد اديان)، و(ناموس عقلي خاتمت دين اسلام)³³.

(33) شرح زندكابي دانشمندان: 218.

معالم المنهج الفلسفي عند الزنجاني

الزنجاني فيلسوف من أبرز فلاسفة النجف في القرن الرابع عشر الهجري وفي مدرسة الحكمة المتعالية. كانت له اليد الطولى في تدريس الفلسفة في معاهد النجف العلمية بكل مشاربها المشائية والإشراقية والحكمة المتعالية. فقد تمحض بالفلسفة حتى عرف بالفيلسوف، بالرغم من كونه فقيهاً وأصولياً ومتكلماً.

اتسم المطبوع من أعمال الشيخ الزنجاني الفلسفية، بالدقة والعمق والموسوعية، مع وضوح العبارة والاستيعاب والتفصيل والمقارنة. والملاحظ في هذه الآثار القدرة الفائقة على البيان التي اضطلع بها.

سنقف عند معالم المنهج الفلسفي عند الزنجاني، ومعطياته وآثاره من خلال عدة عناوين:

1- الدفاع عن أصالة الفلسفة الإسلامية

وقف بعض الكتاب والعلماء المسلمين موقفاً سلبياً من الفلسفة الإسلامية، واعتبروا أن الفلسفة الإسلامية ما هي إلا نسخة طبق الأصل من نظريات وأفكار حكماء اليونان.

وقد أهمل تاريخ الفلسفة الأوربي الفلسفة الإسلامية، وانتقل من العصرين الإغريقي والمسيحي إلى العصر الحديث، قافراً من القرن الرابع الميلادي إلى نهوض ديكارت وباكون في القرن السابع عشر وسجل: "أن الفلسفة الإسلامية لا تزيد على أنها نظريات يونانية، ولا يوجد فيها شيء من الإبداع والابتكار، وأن العالم مدين بجزية الفكر لليونان، وأن فضل العرب لم يكن إلا نقل الثقافة اليونانية وتسليمها إلى أوروبا، إلى غير ذلك"³⁴.

وقف الزنجاني موقفاً مبدئياً صلباً من هذه الدعاوى، وأقام الأدلة والبراهين على وجود فلسفة إسلامية تخص المسلمين أنفسهم، وأشار إلى أن العهد الإسلامي هو عهد الابتكار والإبداع، وليست الفلسفة اليونانية إلا نواة للفلسفة الإسلامية التي هي شجرة مثمرة باسقة فروعها.

أورد الزنجاني الشواهد والحجج على إبداع فلاسفة الإسلام النظريات كإخوان الصفا والكندي والفارابي وابن سينا

(34) دروس الفلسفة، عبد الكريم الزنجاني 1: 15-16.

والخواجة الطوسي وابن مسكويه وصدر المتألمين. بل رأى أن أهم عامل وسبب في تفلسف المسلمين هو الإسلام الذي هو دين الفطرة، والقرآن الكريم الذي هو أول كتاب سماوي فرض تعلم العلم والفلسفة فرضاً على إتباعه. يقول في ذلك:

«هل هناك فرق بين دعوة الفلسفة معتنقيها إلى الفكر والتأمل في نشأة العالم ومصيره وفي عظمة الكون ونظام تسييره، وبين قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ}»³⁵، وقوله تعالى: {إِن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}»³⁶، وسائر الآيات القرآنية الصريحة في أن الإسلام حول العقل الفطري السليم من شوائب الأوهام، كامل سلطانه ولم يشترط للنظر العقلي وجهة معينة، ولم يجد له حداً مخصوصاً مقررًا، بل ترك العقول السليمة حرةً لبلوغ الحقيقة المجردة في العقائد، وفي عالم الوجود والتكوين، من مبدأ وجود العالم إلى مصيره (أي معرفة المبدأ والمعاد)، حسبما تتطلبه غريزة الشعور الديني في الإنسان...

ولا ريب في أن كل من يلقي نظرة فاحصة على القرآن الكريم ويتأمل في آياته الدافعة إلى التدبر والتفكير في شيء عظيم من الجد، يتضح له أن هذا الكتاب السماوي الكريم هو أول أسباب تغلغل الفلسفة في البيئات العربية، وهو العامل الأول الذي فتح للعرب باب البحوث الفلسفية المؤسسة على المنطق والتأمل، فظهر لهم شيء من هذه البحوث التي لم يكن لهم بها عهد قبل نزول القرآن، وكانت هذه البحوث تدور حول علوم الكون، وعلوم الدين من توحيد وتفسير وتشريع، ولاشك أن هذا طليعة سافرة من طلائع الفلسفة ظهرت في صدر الإسلام وأخذت تنمو وتتزايد إلى أن بُدئ في الترجمة عن اليونانية والفارسية والهندية. وكان العربي المسلم يمتاز بذكاء طبيعي وبقوى عقلية دفيئة، وبرغبة في الاطلاع على الجديد فأصبح بعد وقت قصير وريث حضارة الشعوب العريقة في القدم التي تغلب عليها أو احتك بها، وتبع دور الترجمة الطويل بما كان فيه من إنتاج، دوّر الابتكار والابتداع المؤسس على الثقافة الإسلامية»³⁷.

(35) سورة الأعراف، الآية: 185.

(36) سورة آل عمران، الآية: 190.

(37) الكندي خالد بفلسفته: 8-9، تحت عنوان: (أهم أسباب تفلسفه).

ولا يقف الزنجاني عند ذلك، بل يتخطاه الى القول إن الفلسفة اليونانية تشكلت وتكونت من عناصر شرقية، ففي التاريخ أن الإغريق أوفدوا إلى مصر (فيثاغورس) و(أفلاطون)، ومن رجال تشريعهم (ليكرجوس) و(صولون) فأقاموا بها ما شاءوا، ثم عادوا إلى بلادهم مزودين بما شاء الله من العلم والحكمة.

وثبت تأثر (فيثاغورس) من الفلسفة الشرقية في رحلته إلى الهند وإلى مصر.

وقد عثر الباحثون الأثريون على كلمات العدالة والفضيلة والنفس والحياة الأخرى وخلود الروح في الشرق قبل تاريخ وجودها في الغرب بقرون لا يعرف مداها، وقرر الباحثون في الإنسان وخواصه واختلاف طوائفه، أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريان الإغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريقي، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها. وحدث المؤرخ الشهير (ديوجين لا إرس) في كتابه (حياة الفلاسفة) عن فلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة.

ويخلص الزنجاني إلى أن الفلسفة شرقية في نشوئها، وإسلامية وعربية في كمالها معززاً قناعته بذكر الشواهد من الفلسفة الإسلامية على ذلك.

2- الأسلوب المعاصر

شخص الشيخ الزنجاني المشاكل التي تعاني منها الفلسفة الإسلامية. ورأى أن أحد هذه المشكلات التي توجب إعراض جمهور المتعلمين عن الفلسفة ونبذها، هو الأسلوب المعتاد في الكتابة الفلسفية، فهو أسلوب عسير الفهم، بعيد الغور، يكد الذهن، ويستنفذ المجهود بلا إنتاج³⁸.

وقد أكد الزنجاني أن هذا الأسلوب المطلسم المرموز، هو الذي أوجب اختفاء حقائق الفلسفة الإسلامية، ومن شواهد ذلك هو ما وقع فيه ناشر كتاب (منطق المشركين) لابن سينا، وهو فاضل عربي مصري. حيث وصف فلسفة ابن سينا بأنها (لاهوتية) وأراد من ذلك: أنها لا يصدقها عقل، ودليله: أن ابن سينا يرى ضرورة حدوث العالم،

(38) دروس الفلسفة 1: 14 - 15.

والدليل هو أن ممكن الوجود قد يكون واجب الوجود، وهذا تناقض محال عند العقل، ولا يعرف العقل صلة هذا الدليل بحدوث العالم³⁹.

يقول الشيخ الزنجاني:

"إن للفلسفة الإسلامية أسلوبًا معقدًا اتخذته من الفلسفة اليونانية، وهو أنها مصوغة في طلاس من الرموز لا يمكن حلها وفهمها لغير واضعيها، أو الذين يدرسونها بطريقة تنتهي إليهم من ذوي العقول الممتازة، ولا يمكن الوصول إلى ناحيتها المغلقة بمجرد معرفة اللغة العربية أو بعض قواعد العلوم، ولذلك حينما تذكر كلمة فلسفة يقترن بها أول وهلة عمق التفكير، وعسر الفهم"⁴⁰.

وبناءً على هذا فـ"فلا غرو أن لا يفهم الفلسفة الإسلامية، من ينظر في كتبها الموضوعية على مناهج غربية، يحاّر فيها القراء الذين لا يتعمقون في البحث الفلسفي، محاولاً أن يعرف المراد منها، ويكشف أسرارها بمجرد معرفته اللغة العربية، أو بعض قواعد العلوم، ولا يلازم من لم يفهم هذه الفلسفة المرموزة من الغربيين المستشرقين وغيرهم"⁴¹.

وتأسيسًا على ذلك حاول الزنجاني في كتاباته ومحاضراته الفلسفية، أن يتخذ من الأسلوب المعاصر وسيلة لعرض الأفكار الفلسفية الدقيقة، وكان موفقًا في ذلك، فلقد تميز الشيخ الزنجاني - بإجماع مؤرخي حياته - ببلاغة البيان، والتفنن في طراز البلاغة. فكانت كتاباته ومحاضراته، قولًا بليغًا مستحكم الصياغة في أبداع تصوير، فقد صور أدق معضلات الفلسفة بأحسن تعبير.

بل رأى الزنجاني - وهو مصلح اضطلع بالدعوة إلى إصلاح مناهج التعليم والتدريس - أن من أهم المهمات أن تكون كتب التدريس والتعليم مصوغة في أسلوب عصري سلس. يقول في خصوص الفلسفة: "فما أحوج معاهدنا العلمية، ومدارسنا القومية، وثقافتنا الإسلامية، إلى مؤلفاتٍ فلسفية وافية دقيقة، موضوعةٍ في أسلوب عصري سلس،

(39) دروس الفلسفة 1: 100.

(40) دروس الفلسفة 1: 49.

(41) دروس الفلسفة 1: 51.

تَسِرُ العقول، وتُثير الأفكار، وتَسْتَنْفِر النفوس، وتنفث الروح، وتشحذ الهمم، وتأخذ مأخذ الذهن⁴².

وفي هذا الإطار جاء كتابه (دروس الفلسفة) المثال الأبرز في إتباع أسلوب العصر الحاضر في السلاسة البلاغة. فلقد راعى في هذا الكتاب: وضوح الفكرة، ودقة التعبير، وحسن الترتيب، وسهولة العبارة، وإيجازها، وإيضاح المذاهب الفلسفية المعقدة، والمذاهب الملتوية، بأوضح عبارة لا ينتابها غموض ولا جمود.

وفي مقال له بعنوان (واجب الأمة وواجب العلماء) كتبه عام 1938م، دعى الزنجاني إلى تبديل أسلوب التعليم (العقيم) حسب وصفه، المتبع في المعاهد العلمية الدينية⁴³.

وفي مقال آخر بعنوان (الإصلاح الديني)، كتب قائلاً:

"إن النقص الموجود في أسلوب تأليف الكتب الدينية والعلمية ومنهاج التعليم الديني، أوجب اختفاء فلسفة الدين الإسلامي وأسرار التشريع وحقائق تعاليم الإسلام، فقصرت عقول الناس عن نبيل حقيقتها الواضحة الغامضة، ووجد ذلك حيرة عميقة في النفوس، وانفسح المجال لأعداء الإسلام لأن يقلبوا الحقائق الإسلامية، فنشطوا للتلفيق فيها، وإفراغها في غير صورتها وتلوينها بغير ألوانها، حتى تشابهت بالأديان الأخرى التي لا يستفاد منها إلا في المعابد، فاتخذها جمع من بسطاء المسلمين معتقدين بأنها التعاليم الإسلامية، ومجموع ذلك بعث ألسن الناس بتنقيص الدين والقول بأنه يعطل التفكير والإبداع، ويدعو إلى الجمود والانحطاط، ويصطدم بأسباب الرقي والتقدم، ويخالف الحياة في جميع نواحيها، فتكونت عند المسلمين قضايا معقدة، تجب المسارعة إلى حلها إذ مجلها وتحليلها تشع تعاليم الإسلام، ويثبت نظام الأمم الإسلامية وارتباط بعضها ببعض، ويحصل التفاهم المنشود⁴⁴.

أما طرق وأساليب حلها ومن يقوم بذلك؟ فيقرر الزنجاني:

"ولا يستطيع حلها إلا من كان من الراسخين في العلم، الذين لهم المعرفة الشاملة القائمة على مقررات العقل

(42) دروس الفلسفة 1: 14.

(43) واجب الأمة وواجب العلماء، عبد الكريم الزنجاني، مجلة الحضارة 8: 5، 1/ شباط/ 1938م.

(44) الإصلاح الديني، عبد الكريم الزنجاني، مجلة العدل الإسلامي 1: 4-6، 16/ نيسان/ 1946م.

الفطري، والبحث العلمي والتفكير الحر والإحاطة بسر الإسلام وعظمته وفلسفته، وبأسرار التشريع الإسلامي وكتاب الله المعجز الخالد، ومعرفة نفسيات البشر، ومقومات الأمم التي لا تستطيع أمة أن تحي وترفع رأسها وتجند مكانها في العز والمجد إلا بها، فيصوغ فلسفة الإسلام في أسلوب عصري وعقلي لا ينتابه جمود ولا غموض، مراعيًا في تسجيلها ما ألفتته طباع أهل العصر، وجمهور المتعلمين من المسالك الحديثة، لكي ترسخ في العقول وتؤثر⁴⁵.

ولكن الزنجاني في الوقت نفسه يرى ضرورة مراعاة ترتيب العلوم في التعلم؛ لأن العلم بمثابة الغذاء للروح وللنفس الناطقة، فكما أن أغذية الجسد تختلف بالمناسبات، فالصالح من الأغذية للشباب لا يصلح للطفل، والصالح للصحيح لا يصلح للمريض، والصالح للمزاج القوي لا يصلح للمزاج الضعيف، فكذلك العلوم يجب تعلمها حسب استعداد المتعلم بروحه ونفسه ومحيطه وبيئته، ورعاية الأصلح منها فالأصلح والأهم منها فألاهم.

وهذا سر تقسيم العلوم إلى ابتدائية ومتوسطة وعالية، وهو السبب لرعاية الأقدمين الترتيب الطبيعي في موضوعات العلوم، لكي يتكون للمتعلم في العلم السابق استعداد تحصيل العلم اللاحق، على وجه يترتب عليه الأثر المطلوب منه، ولأجل ذلك التزم الحكماء والفلاسفة بتقديم تهذيب الأخلاق وتقويم الفكر بتعلم بعض العلوم الرياضية على الشروع في علم المنطق، ثم قدموا تعلم المنطق على الفلسفة، وتعلم الفلسفة الطبيعية على العلم الإله⁴⁶.

ولكن تجريد الفلسفة من الغموض والتعالي واللغة الطلاسمية، لا يعني انتزاع تميزها وخصوصيتها في منهجها وقضاياها، وذلك التماسك الذي يلف صياغتها والنضج الذي تسمو به مادتها.

3- التلاقح مع الفلسفة الحديثة

من السمات البارزة في منهج الشيخ الزنجاني الفلسفي، هو التلاقح والتكامل مع الفلسفة الغربية المعاصرة، وقد اهتم بها أيما اهتمام. وبالرغم من تصديه لتشكيكات المستشرقين ومقلديهم من الشرقيين على ما سيأتي، والتأكيد على أصالة وإبداع الفلسفة الإسلامية، إلا أنه لا يدعو إلى نبذ الفلسفة الحديثة والاقتصار على الفلسفة القديمة، بل يرى

(45) الإصلاح الديني، عبد الكريم الزنجاني، مجلة العدل الإسلامي 1: 4-6، 16/ نيسان/ 1946م.

(46) صفحة من رحلة الإمام الزنجاني 1: 228-229.

في كل من الفلسفتين:

"قوة عقلية جاهزة، وعُدة فكرية ناهضة، يجب استغلالهما ولا يجوز الاستغناء عن كل منهما، بل يجب أن نضم نفائس الفلسفة الحديثة الغربية إلى حقائق الفلسفة القديمة الشرقية، على ضوء العقل والروية، لنستخلص منهما مزيجًا إصلاحيا خالصًا، وفلسفةً قويمَةً صالحةً للحياة والبقاء، وكذلك أراد الله أن تكون الحياة؛ مزيجًا من صالح القديم والحديث، ولن تجدَ لسنةِ الله تَبديلًا"⁴⁷.

استعرض الشيخ "الزنجاني" فلسفة ديكارت مقارنة بفلسفة الشيخ الرئيس، كما استعرض كلمات الفيلسوف الألماني "عمانوئيل كانت" وآرائه في الزمان والمكان، ودل على أسبقية "الملا صدرا" بتقرير حقائق هذه المسائل قبل "كانت" بقرنين من الزمان⁴⁸. كذلك استعرض "الزنجاني" النظرية النسبية للدكتور "ألبرت اينشتاين" (1879-1955م)، مشيرًا إلى أن ما جاء في هذه النظرية من المفارقة بإثبات البعد الرابع للموجودات المادية، كان قد أثبتته صدر المتألهين قبل اينشتاين بقرون، ودل على ذلك بنقل كلمات الملا صدرا⁴⁹. وكذا وقف عند الأفكار الاشتراكية والشيوعية مبينًا تماثلها⁵⁰.

مضافًا لذلك فقد حفلت دراسات الشيخ "الزنجاني" المختلفة، بذكر آراء وأفكار كثير من الفلاسفة والمفكرين الغربيين من أمثال: "توماس مور" (1478-1535م)، "كامبانيا" (1568-1639م)، "جون لوك" (1632-1704م)، "نيوتن" (1642-1727م)، "دارون" (1809-1882م)، "هيجل"، "أنجلز" (1820-1895م)، "درير" (1837-1882م)، "غوستاف لوبون" (1841-1931م)، "وليم جيمس" (1842-1910م)، "فرنسيس بيكون" (1561-1626م)، "ماركس" (1818-1883م)، "أدوارد هاتمان"، "فيلبون"، "كرادي فو" (1867-1953م)، وغيرهم.

(47) دروس الفلسفة 1: 16-17.

(48) دروس الفلسفة 1: 31-36.

(49) دروس الفلسفة 1: 40-45.

(50) دروس الفلسفة 1: 86-93.

ودلت كتابات الشيخ "الزنجاني" لاسيما (دروس الفلسفة)، على عظيم اطلاعه على الفلسفة الغربية، وهو أول من تعرض للفلسفة الغربية وكتب فيها مقارنًا إياها بفلسفة المسلمين، وتعرض لتخرصات المستشرقين وما حملته أقوالهم من خبط وخطط بشأن الفلسفة الإسلامية.

ومع ذلك فالزنجاني لم يكن فيلسوفًا من صنف الذين يقضون حياتهم متأملين في عزلة باردة في قمة الأبراج العاجية، وإنما كان فيلسوفًا يحمل موقفًا اجتماعيًا ورساليًا عظيمًا، وقد ظل يدافع عن موقفه هذا ويضحي لأجله طوال حياته الغناء. فما أنبل شعور هذا الحكيم وهو يدعو للوحدة والتعايش والسلام ويجوب الأقطار لذلك.

4- نقد الفلسفتين الإسلامية والغربية

إن دفاع الزنجاني عن أصالة وجود الفلسفة الإسلامية، وعن عهد الابتكار والإبداع فيها، لا يعني أنه يقبل بالمطلق كل المقولات والأفكار التي طرحها الفلاسفة المسلمون على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ومدارسهم، وإنما اتخذ موقفًا نقديًا إزاء التراث الفلسفي الضخم الذي ورثه عظماء فلاسفة الإسلام. وكذا الحال في تواصله مع فلسفة الغرب، فلم يقبلها بالمطلق وإنما سار معها سيرًا نقديًا. ويمكن بيان ذلك من خلال مجموعة نقاط:

1- فعلى خط الفلسفة الإسلامية نجده على سبيل المثال وقف موقفًا نقديًا من نظرية الملا صدرًا في المعاد الجسماني، معتبرًا أن المعاد الذي أثبتته الأخير جسماني في الاسم فحسب، على الرغم من كون الزنجاني واحدًا من اتباع مدرسة صدرًا⁵¹. ثم طرح نظريته الخاصة في المقام وخلاصتها:

إن الفلاسفة القائلين بأن المعاد الجسماني ممتنع برهانًا وبالتالي لا بد أن يصار فيه إلى التعبد بقول الشريعة، لما اعتقدوا بأن للمادة الجسمانية لوازم يستحيل انفكاكها عنها في جميع أطوارها الوجودية، لذلك لا يتكون الجسم المادي إلا من العناصر عن طريق طبيعي، ولا ينمو إلا بواسطة الأخلاط، ثم قالوا بالتلازم بين الصورة والمادة في الوجود. ومن المسلمات عندهم أنه لا يمكن وجود المادة الجسمانية في الخارج من دون تلك اللوازم، والمعاد الجسماني يقتضي وجود

(51) دروس الفلسفة 1: 114.

المادة في الخارج من دون لوازمها، فهو ممتنع.

أما الزنجاني فيرى: أن اللوازم التي اعتقد الفلاسفة أنها من لوازم المادة ليست في الحقيقة ونفس الأمر من لوازمها، وإنما هي من لوازم النشأة ووعاء هذا الوجود الدنيوي، فمن الممكن أن توجد المادة الجسمية في خارج الذهن وفي نشأة الآخرة من دونها، وحيث أن الزمن يرينا في كل يوم أن الآراء القديمة في قَصْر الأجسام على خواص معينة، وفي حد الغايات بوسائل خاصة، آراء باطلة فينبغي أن لا تعتمد الفلسفة عليها⁵².

2- وكذا نقد الفلاسفة المسلمين القائلين: بأن العقل الفعال الذي يمثل العقل العاشر في سلسلة العقول الطولية، هو (جبرئيل) في لسان الشارع، وهو موجود مجرد صرف. فقد رأى الزنجاني أن تسمية جبرئيل بالعقل الفعال دعوى بلا دليل، إذ لا دليل من عقل أو نقل على ذلك⁵³.

3- وكذا الحال في موقفه من فلسفة الغرب، فقد نقد كل من "ديكارت" و"كانت" و"اينشتاين" وغيرهما من أعلام فلسفة الغرب.

والخلاصة: إن أعمال الشيخ الزنجاني حتى الفقهية منها، تعد أعمالاً نقدية لم ترهّن للمتعارف والمألوف في الأبحاث المختلفة.

5- التصدي للمستشرقين من المعالم البارزة في فلسفة الشيخ الزنجاني التوقف عند تشكيكات المستشرقين وأقوابيلهم بشأن الفلسفة الإسلامية.

فلقد وقف المستشرقون موقفًا عدائيًا تجاه هذه الفلسفة، انطلقوا فيه من نظرتهم الشزرة للعنصر السامي. فهذا "ارنست رينان" (1823-1892م) المؤرخ الفرنسي للفلسفة، تبنى موقفًا سلبيًا إزاء فلسفة المسلمين، وقد ربط هذا الموقف بفكرته العامة عن الجنس السامي. حيث يقول في كتابه (ابن رشد والرشدية): "ولم تكن الفلسفة عند

(52) دروس الفلسفة 1: 114.

(53) الوحي والالهام، عبد الكريم الزنجاني: 66، مجلة الموسم، العدد 79 - 80، لسنة 2009م.

الساميين غير استعارة خارجية صرفة خالية من كبير خصب غير اقتداء بالفلسفة اليونانية⁵⁴.

ويقول:

"إن الفلسفة في تاريخ نفس العرب لم تكن غير عارض استطرادي، والفرق الكلامية هي التي يجب أن يبحث فيها عن الحركة الفلسفية في الإسلام، كالقدرية، والجبرية، والصفائية، والمعتزلة، والباطنية، والتعليمية، والأشعرية، ولم يحدث أن أطلق المسلمون على هذا الطراز من المباحث اسم (الفلسفة)، ولم يكن هذا الاسم ليبدل عند المسلمين على البحث عن الحقيقة على العموم، بل يدل على فرقة أو مدرسة خاصة، أي الفلسفة اليونانية ومن يدرسونها، ومتى وضع للفكر العربي تاريخ، كان من الأهمية البالغة ألا ندع أنفسنا تظل بهذا الالتباس، وليس ما يسمى الفلسفة العربية غير قسم من الضيق ضمن الحركة الفلسفية في الإسلام ما كاد المسلمون أنفسهم يجهلون معه وجودها تقريباً"⁵⁵.

ولم يعدل رينان عن هذه الرؤية بالرغم من النقد الذي وجه إليه وخصوصاً من جانب هنري رتر وآخريين، كما اعترف هو بذلك في مقدمته للطبعة الثانية فأصر فيها قائلاً:

"ومع ذلك فإنني لم أستطع أن أغير وجهة نظري حيال أصول الفلسفة العربية على العموم وطابعها، فتزاني أصر على اعتقادي أنه لم يسيطر على إيجاد هذه الفلسفة أية فرقة كبيرة من فرق العقائد، وذلك أن العرب لم يصنعوا غير انتحال مجموع الموسوعة اليونانية، كما عول عليه العالم بأسره حوالي القرن السابع والثامن"⁵⁶.

وهذا البارون "كرادي فو" (1868-1953 م) المستشرق الفرنسي المعروف، وصاحب المؤلفات العظيمة في البيئات العلمية، واحد الأفراد الذين دحضوا آراء رينان يقول:

"ليس القرآن كتاباً فلسفياً، وليس محمد فيلسوفاً بالمعنى الفني لهذه الكلمة، ولكنه التقى أثناء تأديته مهمته ببعض المشاكل الفلسفية، فمنحها حلولاً الهامية مصوغة في أسلوب أدبي، ومجموعة هذه الحلول هي التي كونت العقيدة

(54) ابن رشد والرشدية، ارنست رينان: 15، ترجمة: عادل زعيتر.

(55) ابن رشد والرشدية، ارنست رينان: 15-16.

(56) ابن رشد والرشدية: 10.

الإسلامية وهي صارت فيما بعد نقطاً محددة في النظر الفلسفي عند العرب، وإذا فلم تكن المشكلة العامة عند العرب هي البحث عن الحقيقة ما دام أن هذه الحقيقة قد قدمت إليهم في عدة هذه النقط الجوهرية، وإنما هي التبدل بالبراهين التحليلية العقلية على هذه الحقيقة التي بسطت بطريقة الهامية، واستبدال الصورة الأدبية التي صيغت فيها بصورة تتفق مع مناهج الفلسفة القديمة، وذلك هو ما كان يطلق عليه اسم المشكلة المذهبية⁵⁷.

ومن تخطيطات المستشرقين التي استعرضها الزنجاني، هي اعتقادهم أن فلسفة أفلاطون نظرية محضة، بينما يقولون في جانب آخر إن فلسفة أرسطو عملية صرفة. والحقيقة أن كل واحدة من الفلسفتين جامعة بين النظرية والعملية⁵⁸. هذا فضلاً عن تخطيطات الأخرى بين النظريات، ونسبة الآراء غير الصحيحة للفلاسفة المسلمين.

وكذلك فعل تلاميذهم كالدكتور "علي العاني" أستاذ الفلسفة بدار العلوم بمصر في كتابه **محاضرات في الفلسفة**، الذي اعتمد على كتابات المستشرقين في تقرير الآراء غير العلمية التي تضمنها كتابه ونسبها إلى أكبر فلاسفة الشرق الفارابي. ولذا لا يستغرب أن تتسم أفكار الطلاب في جامعات الشرق، فتراهم يرجحون أحط نظرية غريبة على نظريات فلاسفة الشرق أجمع⁵⁹.

أما أسباب هذا الخبط الذي وقع فيه المستشرقون ومقلدوهم، فيمكن إجمالها حسب رؤية الزنجاني في أمور:

1- أسلوب الفلسفة الإسلامية المعقد. ذلك أنها مصوغة في طلاس من الرموز، ولا يمكن حلها وفهمها لغير واضعيها، أو للذين يدرسونها بطريقة تنتهي إلى واضعيها من ذوي العقول والأفهام الممتازة، ولا يمكن الوصول إلى ناحتها المغلقة بمجرد معرفة اللغة أو بعض قواعد العلوم. ولذا لا يستغرب أن تأتي الفلسفة التي تنقل إلى العربية عن طريق الترجمة مشوهة قبيحة.

2- إن التشابه الحاصل بين بعض مباحث الفلسفة وعلم الكلام هو الذي أوقع المستشرقين في الخبط والخلط،

(57) دروس الفلسفة 1: 99-100.

(58) صفحة من رحلة الإمام الزنجاني 1: 362.

(59) صفحة من رحلة الإمام الزنجاني 1: 365-366.

وخصوصًا بالنسبة إلى "كرادي فو". ذلك أنهم أخذوا تلك المباحث الطبيعية والإلهية والرياضية من الكتب الكلامية على أساسها الجدلي، المقيد باعتبار ديني، وزعموا أنها مباحث الفلسفة الإسلامية البرهانية العقلية، فضلوا وأضلوا، وأضاعوا كرامة الفلسفة الإسلامية التي وضعها أعلام الفلسفة على أساس برهاني متين. فلا ريب أن جملة من اعتراضات المستشرقين وتشنيعاتهم، واردة على ما فهموه لا على ما قالته الحكماء وفلاسفة الإسلام⁶⁰.

يقول الشيخ الزنجاني: "ولكن يوجد في المستشرقين من أفاد اللغة العربية واللغات الشرقية، كما يوجد فيهم من لا يصلون إلى الحقائق. وقد زار أحد المستشرقين طهران عاصمة إيران منذ أكثر من نصف قرن، بعد أن تعلم اللغة الفارسية في مدارس الألسنة الشرقية، وكان يحاول أن يضع تاريخًا عن حالتها الاجتماعية والأخلاقية كما يشاهدها، فرأى حمالين وعلى رؤوسهم أوان مذهبة وأشياء فاخرة وأمهم الدفوف والمزامير، فسأل المستشرق غلامًا عن ذلك: - فقال له الغلام: أنهم يحملون جهاز عروس.

- فسأله المستشرق ما اسم العريس؟

- فقال له الغلام: ماذا يهملك.

وفي المساء رأى المستشرق رجلًا يضرب امرأة في الشارع، فسأل غلامًا عن هذا الشخص؟

- فقال له الغلام: إنه زوجها وقد تركته بغير حق.

- فسأله عن اسم الزوج، فقال له الغلام: ماذا يهملك. فظن المستشرق أن اسم الرجل ماذا يهملك، وأنه العريس

الذي رأى جهازه في الصباح، فكتب المستشرق في كتابه تاريخ إيران: أنه رأى في عاصمتها بعينه عريسًا اقترن صباحًا وضرب عروسه في الشارع ليلاً، وكان اسمه ماذا يهملك!.

هذا حال المستشرقين في الحسيات والمشهودات، فكيف يكون حالهم في النظريات الدقيقة الغامضة؟. وهذا

(60) دروس الفلسفة 1: 100.

مقدار صحة ما يوردونه في كتبهم في قضايا لا يتعمدون التحريف فيها، فكيف فيما يتعمدون فيه التحريف؟...⁶¹.

3- الأهداف السياسية والحضارية. فمن المستشرقين من عرّفوا فلسفة الإسلام، ولكن أبت سريرتهم إلا أن يصوروا الإسلام كغيره من الأديان، قاصرًا عن إيصال المسلمين إلى السعادة الدنيوية، قاصدين بذلك حصر الإسلام في المساجد والمعابد، لكي يتسنى لهم نشر حضارتهم في بلاد المسلمين⁶².

4- إسقاط أفعال المسلمين على فلسفة الإسلام نفسه. يقول: "... ومن المؤلم أن المستشرقين الذين يتوافقون على بلادنا لدرس تعاليم الدين الإسلامي، ينظرون إلى أعمال المسلمين ويذهبون إلى تدوين ما يرونه وكأنه فلسفة الدين الإسلامي وتعاليمه، ثم تأتي كثرة من الشباب وكثير من الشيوخ فيدرسون مؤلفاتهم فيخرجون منها مارقين من الدين، ومعتقدين بأن الدين يضع العراقيل في طريق سيرهم نحو الرقي والتعالى، ويظنون أن الدين لا يصح أن يتخذ أساسًا في الحياة، وأن نيل سعادة الحياة وبلوغ الحضارة وتأسيس الدول الراقية المجهزة بالعلم والصنائع، لا يتم إلا برفض الدين. فانصرفوا من الدين إلى الإلحاد وعبادة المادة تقليدًا للغرب ثم تجرّثوا على الإسلام أيضًا، فاتهموه عمدًا أو جهلًا بأنه كغيره من الأديان إن صلح فإنما يصلح للأرواح، أما الحياة الدنيوية الزمنية فإنه لا صلة بينه وبينها، لأنه خلو مما يقومها ويصلحها، وأن ما يدعيه له أنصاره فإنما هو أشياء جمدوا عليها، على أنها وإن ناسبت - كما يزعموها له - فإنما هي أمور عُدْم عهدها وكانت لزمن سالف وأمة قد خلت.

ولكنهم لو أنصفوا ودققوا النظر لوجدوا أن كلمة الدين في كتب الأوروبيين معناها المسيحية لا الدين في ذاته، وإذن فهي لا تنطبق على الإسلام الذي لم يفهموا روحه وحقيقته، لأنهم تعلموا تعاليم الإسلام من الغربيين الذين استنبطوها من أعمال المسلمين، و(المسلمون شيء والإسلام شيء آخر)، ولو أخذوها من علماء الدين الإسلامي المتخصصين في معرفة فلسفته وأسرار تشريعه وأسرار كتابه المعجز الخالد، لأدعنا بأن الإسلام يجب أن يكون المبدأ الذي تصدر عنه نخصتنا، والأساس الذي نبنى عليه حياتنا، لأن للدين سلطانًا فوق العقل، وسرًا يدق عن التعبير، ولأن الإسلام ليس دينًا بالمعنى الذي يعرف في أوروبا، ويأخذه بعض الشباب المثقف في أقطار الشرق الإسلامي

(61) صفحة من رحلة الإمام الزنجاني 1: 370.

(62) صفحة من رحلة الإمام الزنجاني 1: 370.

تقليدًا بلا فهم ولا علم، ظانين أنه كسائر الأديان لا يصح أن يتخذ أساسًا في الحياة، ولكنهم لو كانوا يفهمون الدين بدافع غريزة التدين والشعور الديني ويعرفون أساليب المقارنة والموازنة بين الأديان السماوية، اتضح لهم أن الأديان الإلهية كلها صادقة...

أما الإسلام فجاء بالاعتدال التام في كل ذلك، ليجعل العدل موزعًا، فكان لا شرفيًا وروحياً محضًا ولا غربياً وماديًا صرفًا، بل جمع بين السعادتين.

فالإسلام متكفل لجميع مصالح البشر الدنيوية والأخروية، ومحتوٍ لأسرار سعادة الإنسان الأبدية وهو دين الحياة، ويوافق جميع وسائل الرقي والسعادة، ويلتزم الطرق الإصلاحية⁶³.

على أن لا تفوتنا الإشارة إلى أن الزنجاني في الوقت الذي نقد فيه المستشرقين، وتصدى لتحريفاته تجاه الفلسفة الإسلامية، كان مضطربًا كذلك لنقد طائفة من السليبيين الذين وقفوا موقفًا معارضًا للأبحاث العقلية وخصوصًا الفلسفة. يقول:

"...إن العقيدة الإسلامية الصحيحة المستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله، لا تجزع من الفلسفة ولا تضطرب من صولتها، بل لا تصطدم معها البتة، لأن الفلسفة نتيجة العقل السليم الذي خوله الإسلام كامل سلطانه، ولم يشترط في كتاب الله وسنة رسوله للنظر العقلي وجهة معينة، ولم يجعل له حدًا مخصوصًا مقررًا، بل ترك العقول السليمة حرة لبلوغ الحقيقة، والقرآن والسنة هما مصادر التشريع والاستنباط عند الفقهاء، وإذن فلم يكن الفقهاء في حاجة إلى التملق أو الاسترضاء.

وأما ما نسب إلى "الشافعي" من أنه قال: (من احترف الفلسفة فقد تزندق)، فلم تثبت صحته، وعلى فرض الصحة، فسببه أن قومًا من الماجنين الذين لا خلق لهم قد حشروا أنفسهم في زمرة الفلاسفة، مع ما أشتهر عنهم من الاستهتار والمروق عن الدين والأخلاق فحملوا بعض الفضلاء على أمثال هذه التصريحات⁶⁴.

(63) صفحة من رحلة الإمام الزنجاني 1: 366-369.

(64) الكندي خالد بفلسفته: 14، مطبعة الغري الحديثة- النجف 1962م.

6- اعتماد المنهج المقارن

من السمات البارزة اعتماد منهج المقارنة في بحث المسألة الفلسفية، فتراه في المسألة المراد بحثها ينقل آراء الفلاسفة اليونانيين والإسلاميين والغربيين.

فعلى سبيل المثال نراه في بحث تعريف الفلسفة، قد نقل تعاريف فلاسفة اليونان، أمثال "سقراط" و"أفلاطون" و"أرسطو" والفلاسفة الرواقيين والأبيقوريين والكلبيين والإستوئيين، ثم عطف ذلك بذكر تعاريف العصر الإسلامي وذكر تعاريف الفلاسفة: "الفارابي" و"ابن سينا" و"ابن رشد" و"صدر المتألهين" و"الحكيم السبزواري" وغيرهم، بعد ذلك نقل تعاريف فلاسفة الغرب ك"ديكارت" و"بيكون" و"هيوم" و"جون لوك" و"كوندياك" و"كانت" و"هيغل"⁶⁵.

وكذلك فعل في بحث موضوع الفلسفة، حيث نقل آراء الفلاسفة اليونانيين والإسلاميين والغربيين⁶⁶. وهكذا في المسائل الأخرى نجده لا يغفل عن إتباع المنهج المقارن، لإدراكه أن هذا المنهج هو الأمثل للتوفر على جميع جوانب المسألة المراد بحثها.

7- الخروج عن أسر المسائل التقليدية

من المعالم البارزة في كتابات الزنجاني الفلسفية، هو تجاوزه الطريقة المعروفة في بحث الفلسفة من الاقتصار على المسائل الموروثة، وإنما تخطاها ليبحث المسائل المعاصرة المستجدة بعناوينها الجديدة. فتراه قد أدرج البحث في نظرية المعرفة بعنوانه⁶⁷. واستعرض النظرية النسبية للدكتور "ألبرت أينشتاين"، وما يترتب عليها من نتائج فلسفية ورياضية واكتشاف أساسها⁶⁸.

(65) دروس الفلسفة 2: 142 - 148.

(66) دروس الفلسفة 2: 155 - 156.

(67) دروس الفلسفة 2: 184.

(68) دروس الفلسفة 1: 40 - 44.

وكذلك أشار إلى الانجازات والمكتشفات العلمية، التي اضطلع بها العلماء المسلمون، والتي أشاد بها رجالات الغرب؛ كعلوم الكيمياء والجبر والأزياج وجداول الأوزان النوعية للأجسام⁶⁹.

كذلك ضمن الزنجاني كتاباته الفلسفية الموضوعات المرتبطة بالأخلاق والتربية والسلوك، فتراه تحدث عن تكوين الأسرة، وفلسفة التربية الإسلامية ومراحلها، والأخلاق الإسلامية وأنواعها، والفلسفة الاقتصادية، والفلسفة المدنية، فضلاً عما يعرف بالعلوم الغربية كعلم الحروف وما أشبه⁷⁰.

العقل العملي

اتجه الفلاسفة صوب اخراج مدركات العقل العملي من القضايا العقلية بالمعنى البرهاني، وأدرجوها في جملة القضايا المشهورة بالمعنى الأخص والتأدييات الصلاحية. وحقيقتها أنها قضايا إنشائية يتوافق عليها العقلاء حفظاً لنظام اجتماعهم، أما قبل ذلك الاتفاق فلاحظ لتلك القضايا من الثبوت، بل لو خلي الإنسان وطبعه ولم يتأثر بأدب أو دين لما بت في هذه القضايا.

ولكن على الرغم من كون "الزنجاني" فيلسوفاً راسخ القدم وفيًا لمسائل الفلسفة، إلا أنه في خصوص العقل العملي لم يتبن موقف الفلاسفة وإنما انحاز الى اتجاه المتكلمين الذين يرون الحسن والقبح عقليين. حيث رأى "الزنجاني" أن الحسن والقبح عقليان، وساريان في عقول جميع البشر وفي جميع الأزمنة والأمكنة الخالية من الخرافات الاعتقادية وفاسدات العادة والمألوفات العنصرية والقومية⁷¹.

التوفيق بين الدين والفلسفة

التوفيق بين الدين والفلسفة، أو معالجة التضاد بينهما، عملية ضاربة العمق في تاريخ الفكر البشري، ولم يخل منها عصر من العصور، أو ديانة من الديانات بدءاً من اليهودية فالمسيحية فالإسلام. فقد قام الفيلسوف الإسكندري

(69) دروس الفلسفة 1: 45.

(70) انظر الجزء الأول من كتاب: دروس الفلسفة.

(71) الوحي والإلهام، عبد الكريم الزنجاني، مجلة الموسم ع 79 - 80: 70.

فيلون (30 ق. م - 50 م) بمحاولة التوفيق بين الدين الموسوي والفلسفة عندما حينما شرح الشريعة الموسوية شرحًا فلسفيًا، موضحًا ما فيها من رموز.

وقد كان فيلون أكبر ممثل للفكر اليهودي المثقف بالثقافة اليونانية في ذلك العصر، ونجد لأول مرة في التاريخ أن الحقيقة الدينية قد وضعت في صبغة فلسفية ومبادئ عقلية صرفة، فقد كان فيلون مؤمنًا باليهودية كل الإيمان وفي الوقت نفسه كان شديد العناية بالفلسفة اليونانية، فكان يرى أن كلاً من الفلسفة والتوراة تعبير عن حقيقة واحدة، وكل ما هنالك من فارق هو أن الأقوال الدينية أكمل وأتم ولكنها أقل تفصيلاً، بينما كانت الفلسفة أقل شمولاً وإن كانت أكثر تفصيلاً، لقد اتجه فيلون إلى تفسير التوراة تفسيراً رمزياً بحيث تتفق مع الفلسفة⁷².

وكذا الحال في الدين المسيحي، فعندما جاءت الديانة المسيحية وانتشرت ودخل فيها أناس كثيرون، وآمنوا فيما بعد بالفلسفة، انقسم المدافعون عن الدين إلى طائفتين، الأولى منهما حملت على الفلسفة ورأت فيها مصدر البدع وعارضتها معارضة صارمة، وكان على رأس هذه الطائفة ترتوليان الذي يقول: "أي علاقة توجد بين أثينا وأورشليم؟ بين الأكاديمية والكنيسة؟ إننا بريؤون من الذين ابتدعوا مسيحية رواقية، أو أفلاطونية جدلية، بعد المسيح والإنجيل لسنا بحاجة إلى شيء"⁷³.

أما الطائفة الثانية فقد أعجبت بالفلسفة أشد الإعجاب، وبحثت عن كل الحقائق التي بلغتها الفلسفة والتي أعلنتها الديانة المسيحية في نفس الوقت، وقد خلصت هذه الطائفة من ذلك: أنه لا تعارض بين الفلسفة والدين، بل إن الفلسفة تمهد السبيل للدين فالاتفاق ممكن بينهما، وكان من أشهر رجال هذه الطائفة القديس جوستين وثاناغوراس، فعند جوستين العقل صادق في دائرة الطبيعة، والإيمان مكمل له لا مبطل، لأن مصدرهما واحد.

ثم جاء "كليمان" (150-217م) وهو أول مفكر مسيحي أسهب في تحييد الفلسفة، وكان يرى أن الله تعالى هو مصدر كل حقيقة، ولكن من الحقائق ما يصدر عنه بصفة أولية كحقيقة العهد القديم والجديد، ومنها ما يصدر

(72) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم: 277؛ حريف الفكر اليوناني، عبد الرحمن بدوي: 90-92.

(73) تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى، يوسف كرم: 21.

بصفة ثانوية مثل الحقائق الفلسفية. وكذلك رأى أن من واجب المثقف المسيحي نحو نفسه، يقضي عليه التفقه في الدين، وأن الفلسفة خير أداة لتحقيق هذه الغاية⁷⁴. وقد واصل تلميذه "أوريجين الإسكندري" (150-245 م) خطى الأستاذ.

وبعد هؤلاء جاء القديس "أوغسطين" (354-430 م) فكان له الأثر العظيم في الفلسفة المسيحية، بل الذي اكتمل على يديه كيان الفلسفة المسيحية، فقد مهد السبيل إلى الفلسفة المدرسية، التي بلغت الذروة في القرن الثالث عشر الميلادي مع القديس "توما الأكويني" (1225-1274م).

ولم يكن العصر الإسلامي بدعًا من العصور فيما يرتبط بمسألة التوفيق بين الدين والفلسفة، فقد رأى كثيرٌ من مفكري الإسلام أن الفلسفة هي التشبه بالإله حسب الطاقة الإنسانية، ولقد كان قصب السبق في هذا المضمار للفيلسوفين "الكندي" و"الفارابي"، فالكندي كان يرى أن كل ما أداه الرسول محمد صلى الله عليه وآله موجود جميعًا بالمقاييس العقلية⁷⁵. أما الفارابي فرأى أن الدين والفلسفة تتفقان غايةً وموضوعًا ومصدرًا، وأنهما من أجل الإنسان⁷⁶.

ثم جاء بعدها إخوان الصفا الذين رأوا أنه ليس بين الدين والفلسفة من تعارض⁷⁷. وبعدها جاءت محاولات "الشيخ الرئيس ابن سينا"، و"ابن باجة"، و"ابن الطفيل"، ثم أطل الفيلسوف الأندلسي الكبير "ابن رشد"، فألف كتابًا خاصًا في هذا المضمار أسماه: **فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**.

وهناك محاولات أخرى كثيرة، إلا أن المحاولة التي سجل لها التوفيق في هذا الشأن والتي أنست سابقها وأتعبت لاحتقها، هي محاولة الفيلسوف الإمامي "صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي" المعروف بـ "صدر المتألهين"، الذي أطل بنظام الحكمة المتعالية، وقد رام فيه الموافقة بين البرهان والقرآن والعرفان، فهو يرى أن العقل والشرع متطابقان في

(74) تاريخ الفلسفة اليونانية: 299-300.

(75) رسائل الكندي، تحقيق أبو ريده 1: 244.

(76) تحصيل السعادة، الفارابي: 40-41؛ الدين والوحي والإلهام، مصطفى عبد الرازق: 36.

(77) بيد الدين والفلسفة، د. محمد يوسف موسى: 55.

جميع المسائل، يقول: "حاشى الشريعة الحقبة الإلهية البيضاء، أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينية الضرورية، وتبًا لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنة"⁷⁸.

وبالعودة للمترجم له، فإن "الزنجاني" يرى أن هناك مجموعة أسباب تؤدي إلى تناقض وتصارع العقل (الفلسفة) والشرع، ومرجع ذلك إلى تفهقر العقل وتكلفه بولوج قضايا لم يُكلف بالبحث فيها، ومن جهة أخرى نتيجة التحريف في الدين، وسيطرة الخرافة والأساطير عليه، أما الدين الصافي والفلسفة الخالصة، فلا تنازع ولا تضاد بينهما.

ومن جهة أخرى يرى "الزنجاني" أن الدين والفلسفة دوحتان من أصل واحد أنتجت غريزة التعقل، بل عُصنان أمتهم دوحة التعقل. بل إن الفلسفة والدين كانا في بدء تكونهما متآلفين ومتوافقين، بل كانا متحدتين في الغاية. وكانت معرفة مبدأ العالم ومصيره، ودراسة الألوهية وصفاتها وأفعالها وآثارها، من أهم عناصر الفلسفة.

ويرجع الزنجاني ذلك إلى أن الإنسان لما كثرت عليه أعباء الحياة كثرة هائلة، فألجأته الضرورة إلى استعمال حواسه الباطنة لدفع عادية الطبيعة وتدبير وسائل المعيشة، وتنظيم شؤون الاجتماع مع بني نوعه، ليقوموا بالعمل المشترك اللازم لحياتهم متساندين فيختص كل منهم بجهة منه، وسع ذلك من نطاق إدراكه إلى شيء مما يدركه خياله الساذج. ولم يزل متدرجًا على هذه الحالة، وموسعًا حدود معرفته المقصورة على ظواهر الموجودات والنواحي الاجتماعية، بغريزة حب الاستطلاع التي هي من أكبر النواميس المتممة بل المقومة لنظام الكون وال عمران، حتى أحس بضعف دائرة الخيال وعرف الخداع الحس، فاندفع بدافع طبيعي نحو استعمال عقله الفطري الغريزي، الذي يميزه عن سائر أنواع الحيوان، وهو موضع شرفه ومنبع كرامته وعنصر الفرق بينه وبين الكائنات الأخرى، وأخذ يتدرج في الإدراك العقلي الذي به يتكون تجريد الجزئيات عن المادة وأوضاعها.

ومن هذه المرحلة أخذ الإنسان يحاول أن يبحث عن بواطن الأشياء، وكانت الفطرة الطبيعية تدفعه نحو التفكير في مبدأ حياته، والبحث عن مصدرها وأسباب وجودها، ومصيرها والحالة التي هي عليها، وكان يسأل نفسه: من أين جئنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ ومن أين بدأ هذا العالم؟ وما هو حقيقته؟ وكيف نشأ كذلك؟ وإلى أية غاية تنتهي به

(78) الأسفار الأربعة 8: 261، دار إحياء التراث العربي.

سلسلة الوجود؟ مترقبًا الإجابة على هذه الأسئلة من غريزة العقل الفطري، الذي هو مفسر الكون الوحيد.

وفي هذه المرحلة وعلى أساس هذه الفطرة، والبحث الفطري عن حقائق الأشياء، تكونت (الفلسفة) بغريزة التعقل، منذ عهود بعيدة تقصُر عن إدراكها مجهودات التاريخ.

ومن جهة ثانية فإن الإنسان لما حاول اكتشاف مصدر العالم ومصيره بغريزة التعقل، اهتدى عن طريق الفطرة الصادقة والعقل المستقيم منذ المراحل القديمة - بغريزة الشعور الديني وعاطفته الفطرية- إلى الإذعان بالدين الفطري الذي يقوم أساسه على معرفة مبدأ العالم ومعاده. فهذه الفطرة الإنسانية وغريزة التعقل التي تكونت بها الفلسفة، هي بعينها الغريزة التي تكونت بها العقيدة الدينية للإنسان، فساقته إلى التبعّد والخضوع للأديان السماوية المتخالفة في الصورة والمتحدة في الجوهر.

مما يعني أن التدين مرْتَكِز على أصل نفساني فطري، قائم على أكرم ميول النفس وأبقاها ما بقي الإنسان. والأديان الإلهية كلها اعتمدت في الإنسان على أصل راسخ من غريزة التدين، ودفعته إلى الثقة بأن العالم مجموعة متناسقة تسودها ذاتٌ مدبرةٌ حكيمةٌ، ترقب النيات، وتحكم الضمائر، وأن هذه الحياة صائرةٌ إلى غاية من المسؤولية والمجازات.

وأما مبتدأ الخصام والنزاع بين الدين والفلسفة فإنه لم يحدث بينهما إلا بعد ما كُلف العقل بأن يتكلف إدراك كل ما في عالم الوجود، وأن يحيط بواهب العقل وعلة العِلل، وبعد تقهقر العقل إلى مرحلة الطفولة الأولى، كي لا يحاول أن يفهم إلا العالم المادي بواسطة الحواس التي تخفيء كما تصيب، وتعيد عن الحق كما تترن وتستقيم.

ومن هنا افترق الدين عن الفلسفة، وارتكز على العاطفة والشعور حينما ارتكزت الفلسفة على العقل الفجّ المحدود، فحاولت أن تثبت إلهًا يغيّر الإله الذي أثبتته الدين في الأوصاف والاختيار والعلية والآثار، وأن تثبت معادًا يغيّر المعاد الذي أثبتته الدين في الكيفيات، ومن ذلك تبدل الإيمان بالتشكيك، فنحمت عنه الفلسفة الارتيازية، فتخالفا جوهريا لتخالف العاطفة والعقل المحدود بعدما كانا متوافقين ومتآلفين، حين التزم أهلها بإطلاق الفكر من تقييده في دائرة محدودة من العاطفة، وتحرير العقل من أسره في محيطٍ محصورٍ من دائرة المادة الضيقة، وكانوا لا يحولون

بين المرء وقلبه.

والنتيجة التي يخرج بها الزنجاني من كل ما تقدم: إن كون العقل الفطري الغريزي مصدر الدين والفلسفة هو سر ما يُترأى في الفلسفة الشرقية، وفي الفلسفة اليونانية - التي تكونت على التحقيق من العناصر الشرقية- من مظاهر الانعطاف نحو العقيدة الدينية. مما يعني فظهر أن مزج الدين بالفلسفة، إنما هو من مقتضيات الطبيعة الإنسانية، والفطرة البشرية، وغريزة التعقل، ولذلك لا يخلو من هذا الانعطاف ومن هذا المزج دورٌ من أدوار الفلسفة، حتى فلسفة ديكارت وكأنت وأمثالهما من أعلام الفلسفة الحديثة⁽⁷⁹⁾.

بين الزنجاني واينشتاين

"ألبرت اينشتاين" (1879-1955م) عالم فيزيائي معروف، اشتهر بالنظرية النسبية التي كان لها آفاق فلسفية مشهورة، ولد في مدينة أولم (Ulm) في جنوبي ألمانيا في 14 مارس 1879م من أبوين يهوديين.

في سنة 1905م وحيث كان "الزنجاني" لا يزال طالبًا يدرس مسائل الدين والفلسفة في مدارس مدينة زنجان الإيرانية، أعلن الدكتور "ألبرت اينشتاين" عما سماه بنظرية النسبية المحدودة، وهي التي ارتبطت بها كل شهرته، في هذه النظرية قام "اينشتاين" بتحليل بعض الأفكار الأولية التي كان سائدًا أن العلم قد فرغ من تحديدها وكان على رأسها فكرة المعية التي تساوي الحدوث، وفكرة المعية هذه تقوم عليها نظرية الزمان الفيزيائي خصوصًا عن "نيوتن" (1642-1727م) الفيزيائي والرياضي الانكليزي المعروف صاحب الفلسفة العلمية.

انتهى "اينشتاين" من هذا التحليل لفكرة المعية إلى أنها تختلف تبعًا لاختلاف إطار الإشارة أي موضع الراصد، وأنه لا توجد معية مطلقة كما كانت تدعي النظرية المطلقة في الزمان، إذًا فتحديد المعية وتبعًا لذلك تحديد الزمان الذي يقوم على أساس من ملاحظة المعيات في نقاط مختلفة من المكان، هو أمر نسبي وليس واحدًا بالنسبة إلى زمر مختلفة من الراصد. وإنما سميت هذه النظرية بالمحدودة لأنها لا تتعلق إلا بالراصد الذين تكون حركتهم النسبية

(79) هذا الموضوع مصدره كتاب دروس الفلسفة للمرحوم الزنجاني بتصرف واقتباس وترتيب.

حركة مستقيمة منتظمة.

لم يقف "اينشتاين" عند هذا الحد، وإنما تخطاه في العام 1915م من خلال توسيع هذه النظرية فجعلها تشمل غير حركة الراصدين، وقد سميت بـ"المعممة".

أقام الغرب الدنيا ولم يقعدا لهذه النظرية، واعتبرها أعظم إنجاز تحقق على يد اينشتاين لم يسبقه إليه أحد، حتى لقد تبجح اينشتاين قائلاً: "إنّ الذين يمكنهم أن يفهموها لا يتجاوزون عدد الأصابع"⁸⁰.

ولكن هل كان الواقع كما ادعى "اينشتاين" ومن روج له؟

لا شك أن الأمر على العكس من ذلك، فقد تعرض الفيلسوف الإمامي الشيخ "عبد الكريم الزنجاني" للنظرية النسبية في مواضع متعددة من محاضراته وتأليفاته، فقد تعرض لها في محاضرة كاملة ألقاها في لاهور عاصمة إقليم البنجاب عام 1935م تلبية لطلب الدكتور "محمد إقبال" وجمع من أساتذة لاهور، وكذلك تعرض لها باقتضاب في خطابه بالقدس الشريف وهي المعروفة بـ(الخطبة النارية) عام (1936م)، وكذلك في كتابه المعروف دروس الفلسفة في جزئه الأول الذي رأى النور لأول مرة عام (1940م)، ثم تعرض لها بتأليف رسالة مستقلة في ذلك أسماها نظرة في النظرية النسبية لأينشتاين، إلا أن الذي يؤسف له أن هذا الكتاب غير مطبوع ومفقود.

(80) صفحة من رحلة الإمام الزنجاني وخطبه في الأقطار العربية والعواصم الإسلامية، محمد هادي الدفتر 1: 231.